الثابت الثالث

التنوع العراقى فى الأديان والمذاهب واللغات وطبيعة الأرض

يعجبنى بيت بالفارسية كنا نتندر به فى جلساتنا (الأخ السيد الشهيد مهدى الحكيم[1] والفقير إلى الله تعالى) وهو :

شـيـعى بغـداد سنّيَ أسْت سُنّى بغـداد كـافـرَ أست

وهو بيت ركيك، يبدو أن أحد "الأخباريّين"[2] نظمه، ومفاده أن الشيعىّ العراقىّ - فى نظر هؤلاء - سُنىّ. والسنَى فى نظرهم كافر. فإذن شيعة العراق وسنته فى نظر الأخباريّين وهم "سلفيو الشيعة والماضويّون منهم" كفار. كنّا نتضاحك لذلك، ونجد فى الماضويّين من الفريقين تشابهًا وتقاربًا كبيرين. على كل حال، ما نريد أن يدركه العراقيون جميعًا السنة منهم والشيعة وكذلك

(١) الشهيد مهدى بن السيد محسن الطباطبائى الحكيم: هو صديق عزيز وفقيد غال، والده السيد محسن - رحمه الله - إمام الشيعة الإمامية فى عصره، والذى أعطتْ أسرته الكريمة مع السيد مهدى الحكيم والسيد باقر الحكيم ثلاثة وستين شهيدًا فى ظل نظام الحكم الصدامى. تغمدهم الله جميعًا برحمته وتقبلهم عنده فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد كان اغتيال السيد مهدى فى ١٧/ ١/ ١٩٨٨م فى فندق هيلتون/ الخرطوم بأيدى البعثيين.

(٢) الأخباريون: طائفة من الشيعة بعضها مشبّهة وبعضها سلفية. لمزيد من التفاصيل حولهم راجع: الملل والنحل للشهرستانى (١/ ٣٣٣) طبعة الحلبى ١٩٦٨.

العرب والأكراد والتركمان وغيرهم من المسلمين وغير المسلمين أن **التشيُّع والتسنن** كالعربية والكردية وما إليهما: ثابت آخر من ثوابت العراق الكبرى، فعروبة العراق وإسلام العراق لا يحلقان إلا بجناحين هما الشيعة والسنة معًا وإسلام العراق لا يحلق إلا بجناحيه العربى والكردى إضافة إلى الإخوة التركمان ومن إليهم. وأن تلك الفرية التى روّج لها الطائفيُّون والعنصريون السياسيُّون فى ظروف عديدة من كون الشيعة أعاجم. وأن التشيُّع فى العراق وافد عليه، إنما هى خطأ فاحش، وجهل لا يغتفر بتاريخ العراق، وجغرافيَّته البشريّة والاجتماعيّة؛ فإن كون التشيّع فى العراق عربىّ المولد والنشأة والتطور إنَّما هو بديهيّة تاريخيّة لا يمارى فيها إلا جاهل أو مغرض[1].

لقد ولد التشيع ولادة طبيعية فى بيئة المدينة المنورة، وبعد وفاة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- فكان سهلاً بسيطًا يعتمد على اعتبار الإمام علىّ - رضى الله عنه - أولى بالخلافة وأقدر على تحمل أعبائها من سواه لأسباب كثيرة وصفات عديدة كان يراها بعض الصحابة شروطًا فيمن يخلف رسول الله ﷺ فى قيادة أمته، وقد تولى علماء الكلام وفقه الإمامة بسط تلك الأسباب والأدلة والمناقشات فى مبسوطاتهم. وإذا كان الشيخان أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - قد توليا وعدلا كما أن صهرهما لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واقتران اسميهما فى ذاكرة ذلك الجيل باسمه، وسابقتهما فى الإسلام وفارق السن، والقوم حديثو عهد بالمنظومات القبليّة التى لا يمكن تجاهل دور

---

(١) دراسة تاريخ القبائل العربية والعراقية بصفة عامة لا يدع مجالاً للشك فى هذا الحقيقة. وفى سائر الأحوال فإن المذاهب الإسلامية - كلها - تعود إلى العقيدة الإسلامية والشريعة القرآنية، وتستند إلى محكم آياته، وتجتمع عليه، واختلافاتها اختلافات تقع فى دائرة الاجتهاد المأمور به شرعاً. لمزيد من التفاصيل راجع: العراق فى التاريخ، مرجع سابق.

السن فيها، فإنّ ذلك لم يمنع عدداً من آل البيت ومن الصحابة أنْ يروا أنّ عليّا كان الأقدر على حمل أعباء الخلافة، ومتطلباتها والوفاء بجوانبها الخطيرة. وبعضهم كان يرى فى الأحاديث التى نوهت بفضائل الإمام مثل حديث الغدير [1] وحديث استخلافه على المدينة ليخلف رسول الله ﷺ فيها فى إحدى غزواته وقوله له: "**ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى**"[2]، ذلك كلّه قد عزّز من اتجاه التشيّع للإمام علىّ. وإذا لم يظهر ذلك بشدة فى عهد الشيخين لعدلهما وسابقتهما وصهرهما لرسول الله، وصهر عمر لعلى واستيزارهما لعلىّ كل بطريقته. وتصريح عمر المعلن: "لولا على لهلك عمر"[3] فإنّ ذلك قد ظهر بوضوح شديد فى عهد عثمان - رضى الله عنه - وبخاصّة بعد السنوات الست الأولى من خلافته، حتى أخذت لدى البعض

---

(١) حديث الغدير: أو خبر الغدير: واحد من أخبار كثيرة ومتعددة وردت من طرق كثيرة فى فضائل الإمام علىّ - كرم الله وجهه- فمن حديث زيد بن أرقم ورد من طرق عدة منها: قال: (استشهد على الناس فقال: أنشدك الله رجلاً سمع النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول "**اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عداه**" قال فقام ستة عشر رجلاً فشهدوا). الحديث أخرجه الترمذى والإمام أحمد فى الفتح الربانى ٢٣- ١٢٥ وقد كتب السيد العاملى موسوعة حول الحديث والواقعة التى قيل فيها قبل وفاته بلغت أحد عشر مجلداً.

(٢) عن سعد بن أبى وقاص قال (خلف رسول الله ﷺ علياً بالمدينة فى غزوة تبوك فقال: يا رسول الله أتخلفنى فى الخالفة فى النساء والصبيان فقال: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى) الحديث رواه مسلم ١٥/ ١٧٤، وذكره صاحب الفتح الربانى٢١ / ٢٠٤.

(٣) راجع حديث من أمر عمر بالإقرار برجمها فاعترض علىٌّ، وأقر عمر علياً فى ذلك. نص الحديث فى: محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م، ص٢٦٥.

مظهراً شرعيّا حول اشتراط عربيّة الخلافة، بل قريشيتها، ثم بلغت حد القول بهاشميتها. وعُرف هذا المذهب فى مدارس المدينة المنورة أولاً، ومنها بدأ يندا ح فى الأمصار الإسلامية الأخرى وخاصة فى اليمن والعراق. وبنى على ذلك فقه ربَّما قد نسيت أسباب ظهوره ولكنه ما زال متداولاً فى كتب الفقه حول جواز الصلاة بغير العربية من عدم جوازها؟ وجواز ترجمة معانى القرآن إلى لغات أخرى من عدم جوازها؟. وهل توجد فى القرآن كلمات غير عربية، أو لا توجد فيه كلمة واحدة من خارج لسان العرب؟. وكذلك أحكام الأذان والإقامة وخطب الجمعة والعيدين بغير العربيَّة. وهل يجوز تقديم أى منها بغير العربية؟ أو يعد ذلك مبطلاً لأثر الفعل؟! وإذا لُجئ إلى الضرورات، فما الضرورة فى هذه الحالة؟ وكيف تقدَّر؟ وهل هناك فسحة زمنيَّة لا يعذر غير العربىّ بعدها بتقديم شىء من ذلك بغيرها[1]؟.

كل ذلك الفقه والخلاف فيه والجدل حوله ارتبط بهذا الأمر بشكل أو بآخر، أو تولد عنه. فالتشيّع - إذن - بدأ عربيّا، وتطوّر بين العرب، وعنهم انتشر فى الأماكن الإسلامية الأخرى. وفى حين كان التشيّع ظاهرة معروفة لدى العرب كانت إيران سنيّة، وتنتشر فيها المذاهب الفقهية السنية عدا "قم" وبعض الأحواز[2]، وقد بقيت إيران فى ذلك الوضع حتى قيام الدولة الصفوية فيها

---

(١) نجد هذه المباحث فى أبوابها من كتب الفقه، ومن الجدير بالتنويه أن أئمة الشيعة يرون ضرورة أداء الأذان والصلاة بالعربية. وكذلك أركان الخطبة، ولهم فى ذلك بحوث مطولة. فى حين ذهب الحنفية إلى جواز ذلك. وكل ذلك نابع عن اجتهاد صادر من أهله، ولذلك فإنه اجتهاد معتبر.

(٢) راجع كتاب "الشيعة والدولة القومية"، حسن العلوى، وانظر هامش رقم ٣٨.

فى القرن الهجرى العاشر وأوائل القرن الميلادى السادس عشر. فحملت الدولة الصفوية الإيرانيين على التشيُّع الذى عرف بـ "التشيُّع الصفوىّ" تمييزًا له عن التشيّع العربىّ - الذى كان بعضهم يصفه "بالتشيّع السنّى" أى التشيّع الموافق للسنة النبويّة.

والشعراء العرب الذين جندوا أنفسهم، وكرّسوا شعرهم للإشادة بالتشيع وبيان مناقبه، والدعوة إليه، جلهم إن لم يكن كلهم من القبائل العربية المعروفة التى تبنّت ذلك الاتجاه منهم دعبل بن علىّ الخزاعى [1]، صاحب القصائد المشهورة، ومنها تائيته المشهورة، وفيها جاء قوله:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصاتِ

ديار علىّ والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذى الثفنات

قفا نسأل الدار الذى خف أهله ... متى عهدها بالصوم والصلوات

بنات زياد فى القصور مصانة ... وآل رسول الله فى الفلوات

تراث بلا قربى وملك بلا هدى ... وحكم بلا شورى بغير هداةِ

رزايا أردنا خضرة الأفق حمرة ... وردت أجاجًا طعم كل فراتِ

(١) دعبل الخزاعى: (١٤٨ - ٢٤٦ هـ/ ٧٦٥-٨٦٠ م) دعبل بن علىّ بن رزين الخزاعى، شاعر هجاء أصله من الكوفة، أقام فى بغداد، له أخبار، وشعره جيد، وكان صديقًا للبحترى، وصنف كتابًا فى طبقات الشعراء وكان مولعًا بالهجاء والحط من أقدار الناس، وهجا الخليفة الرشيد والمأمون والمعتصم، وتوفى ببلدة تدعى الطيب فى خوزستان.

والكميت الأسدى[1] وقصائده التى عرفت بالهاشميات، ومنها قوله:

وقـــالوا ترابىٌّ هواه ورأيه ... بذلك أدعَى دائمًـــا وأؤنـــبُ

وقـــالوا ورثناها أبانا وأمنا ... ومـــا ورثتـــهم ذاك أم ولا أبُ

يرون لهم حقّا على الناس واجبًا ... سفاهًا وحق الهاشميين أوجبُ

ومـا لى إلاّ آل أحـمـد شيـعـة ... وما لى إلا مذهب الحق مذهبُ

وكذلك الفرزدق[2] صاحب الموقف المشهور الذى قال فيه قصيدته الذائعة الصيت:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والحِلُّ يعرفـه والبيت والحـرم

بل إنّ الإمام الشافعى[3] كاد يدفع حياته ثمنًا لولائه لآل البيت وتبنيه لذلك النوع من التشيع، وهو الذى روى الرواة قوله:

---

(١) الكميت الأسدى: (٦٠-١٢٦ هـ/ ٦٨٠-٧٤٤م) الكميت بن زيد بن الأسدى شاعر الهاشميين ومن أهل الكوفة، اشتهر فى العصر الأموى وكان عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، وكان منحازًا إلى بنى هاشم كثير المدح لهم، ومن أشهر أشعاره "الهاشميات" وكان خطيبًا لبنى أسد وفقيهًا للشيعة وفارسًا شجاعًا.

(٢) الفرزدق (١١٠ هـ/ ٧٢٨م) هو همام بن غالب التميمى، شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر فى اللغة وكان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب. وهو صاحب الأخبار والنقائض مع جرير والأخطل وكان شريفًا فى قومه عزيز الجانب.

(٣) الإمام الشافعى (١٥٠- ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧-٨٢٠ م) هو محمد بن إدريس بن العباس القرشى المطلبى، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد فى غزة وحمل منها إلى مكة، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩هـ وتوفى بها، وكان - رحمه الله - أشعر الناس وأعرفهم بالفقه والقراءات، وله تصانيف كثيرة أشهرها (الأم) فى الفقه، ومن كتبه أيضًا "المسند" و"أحكام القرآن" و"السنن" و"الرسالة" وله العديد من التصانيف المشهورة.

يا راكبًا قفْ بالمحصب من منى واهتف بقائم أهلها والقاعد
إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضىّ

وحين أحضر بين يدى الرشيد من اليمن مصفدًا بتهمة التشيّع لآل البيت - آل على - دار بينه وبين الرشيد حوار طريف جاء فيه قوله: "يا أمير المؤمنين أتلومنى على حبى لبنى عمومتك وأهلك؟"(١) وهناك الكثير مما يمكن أن يكتب أو يقال فى هذا المجال لإثبات هذا الذى نعده إحدى البديهيات. ولعل فى هذا ما ينبه إلى سواه.

الماضى القريب والدور الشيعىّ فى صناعته(٢):

أما ماضى العراق القريب فيمكن تناوله فى محاور:

المحور الأول: الاحتلال البريطانى الذى تمخضت عنه حملة "ديلامين" الذى احتل "الفاو" بعد أسبوع من إعلان الحرب، ولكن المقاومة العراقية - التى كانت غالبيتها العظمى من العشائر الشيعية، والتى تحركت بتوجيه المراجع الدينيّة - عرقلت تقدمه فلم تستطع القوات البريطانية إسقاط البصرة إلا فى ٢٣/ ١٠/ ١٩١٤م، ولم تتمكن من احتلال بغداد رغم كل التعزيزات التى تلقتها من الهند إلا فى ١١/ ٣/ ١٩١٥م بعد معارك طاحنة، واستمر العراق الأعلى حتى بعد سقوطه يقاتل إلى أن عقد الأتراك والإنكليز الهدنة فى

(١) استقدام الرشيد للشافعى، ورد ذلك فى جل الكتب التى كتبت فى مناقب الإمام الشافعى، والتى جاوز عددها الأربعين.

(٢) من بين أهم المصادر التى بينت الدور الشيعى فى العراق كتاب: عبد الله النفيسى، دور الشيعة فى التطور السياسى فى العراق، وكتاب: الشيعة والدولة القومية لحسن العلوى.

٣٠/ ١١/ ١٩١٨م. وقد كبدت المقاومة العراقية بكل فصائلها البريطانيين ما يزيد على مائة ألف[١] بين قتيل وجريح، ووافق مؤتمر الحلفاء المنعقد فى "سان ريمون" على قيام بريطانيا بالانتداب على العراق، وجاء فى صك الانتداب: أن بريطانيا سوف تسعى لإنشاء حكومة عراقية تضمن "عصبة الأمم" - آنذاك - استقلالها، وتخضع لانتداب بريطانيا عليها لحفظ الأمن فى الداخل وسلامة الدولة من أى اعتداء من الخارج. ويوضح صك الانتداب: أن على بريطانيا وضع النظام الأساسى (الدستور العراقى) على أن تستشير العراقيين فى وضعه، مع ملاحظة حقوق الطوائف المختلفة فى العراق ورغباتها ومصالحها. وخوّل المندوب السامى البريطانى تأليف مجلس شورى يرأسه عربى، ومجلس تأسيسى يمثل العراق كله. ومن الطريف أن المجلس الذى شكّله المندوب السامى كان يتألف من خمسة وعشرين عضواً!!! فتأمل، ولم يستطع المندوب السامى تمريره آنذاك !!

فى ٢٠/ ٦/ ١٩٢١م وصل الأمير فيصل بن الشريف حسين إلى العراق واختير ملكًا دستوريًا فى ٢٣/ ٨ من السنة نفسها، وابتدأت المفاوضات مباشرة بعد تتويج الملك، حيث قدم المندوب السامى "كوكس" مسودة لإعادة تنظيم العلاقات بين العراق وبريطانيا، واستمرت المفاوضات فترة من الزمن طويلة لمجابهتها معارضة شعبية شديدة، ولم توقع إلا فى ١٠/ ١١/ ١٩٢٢م، حيث تم الاتفاق عليها، على ألا تكون نافذة إلا بعد موافقة المجلس التأسيسى عليها، ولم تزل - بعد ذلك - تستقيل وزارة وتشكل أخرى حتى ٢٧/ ٣/ ١٩٢٤م حيث أقرها المجلس التأسيسى - الذى كان قد تم تشكيله -

(١) راجع: العراق فى التاريخ، مرجع سابق، ص ٦٦٢-٦٦٦.

بأغلبية ضئيلة مما يشير إلى تنامى الوعى الشعبى على ما كان يجرى. وهذا الذى نراه بعد ما يزيد على ثمانين عامًا ما هو إلاّ إعادة إنتاج شائهة لما حدث آنذاك من بريطانيا، كما ترى. وقد استطاعت بريطانيا بوصفها الدولة المنتدبة أن تحصل على قرار بضم الموصل إلى العراق[٢]، لا إلى تركيا، والقضاء على حكومة "السليمانية" التى كان الشيخ "محمود الحفيد" قد أقامها فيها، ونادى نفسه ملكًا عليها[٢]، فأخذ العراق حدوده التى كانت عليها فى أوائل العهد الملكى، وهى حدود أضيق بكثير من حدود العراق التاريخية التى ذكرناها.

ثورة العشرين هى الأم الشرعية للعراق الحديث:

إنَّ المقاومة الباسلة للاحتلال منذ سنة ١٩١٤م جعلت روح المقاومة عالية قوية مما جعل "ثورة العشرين" تبدو وكأنها صفحة أخرى أو امتداد لمقاومة الاحتلال، وقد توجت هذه الثورة بالنصر يوم صرح رئيس وزراء بريطانيا بأنه "لا يريد أن يجعل من العراق مقبرة لجيوش بريطانيا". وكل النتائج التى حصلت من إقامة النظام الملكى وتنصيب "فيصل بن الشريف الحسين" ملكًا، والتخلى عن الاحتلال إلى الانتداب، وتحول القوات المحتلة إلى ضيوف فى قواعد، ثم إبرام المعاهدة، وسائر التطورات التى جاءت بعد ذلك، لا يمكن أن تقرأ إلا فى ضوء ذلك الانتصار الذى نجم عن ثورة العشرين.

---

(١) أعد المرحوم عبد الرحمن الجليلى كتابًا فى مجلد حول تاريخ الموصل خصص فيه قسمًا كبيرًا منه لهذا الموضوع.

(٢) وقد أصدر الشيخ محمود الحفيد طابعًا بريديًا لمملكته يعد من أغلى الطوابع البريدية الآن، ولولا الطائرات البريطانية لما تمكنت حكومة الملك فيصل من القضاء على دولته.

وثورة العشرين ثورة قادها المراجع وعلماء الدين، وكان جندها ووقودها العشائر شيوخاً وقبائل. واشترك فيها الشيعة والسنة، ولكن عبئها الأكبر تحملته عشائر الفرات الأوسط الشيعيّة ومراجعها العظام. وقد كانت العشائر السنية غير بعيدة عن المشاركة فى الأماكن التى أمكن لعشائرها أن تشارك فيها وبفاعليَّة أقل وتتحرك بذات الاتجاه مثل عشائر "زوبع" و "شمر" و "عنزة" وبعض العشائر الكرديّة السنية. ولكن التمركز العسكرى وطرق مواصلات الحملات البريطانية النهرية والبرية جعلت العبء الأكبر يقع على عشائر الشيعة، خاصة عشائر الفرات الأوسط.

ما أشبه الليلة بالبارحة وما أروع المراجع والعلماء الشيعة الذين لم يتأثروا بمواقف الأتراك السلبيّة ضدهم قبل ذلك، والتى عانى أتباع المذهب الشيعى ومراجعه منها الكثير، ومع ذلك فقد دعوا العراقيين والعشائر وحشّدوهم ودفعوهم إلى مقاومة الإنكليز ومناصرة القوات التركيّة فى الجيوب التى كانت تدافع عنها قبل توقيع تركيا اتفاقية الهدنة. فهم لم يفعلوا ما فعله قادة الثورة العربية فى الحجاز من مقاتلة الأتراك إلى جانب الإنكليز حتى فى مكة والمدينة المنورة ونسف سكة حديد الحجاز، وهى السكة التى لم يستطع عرب المنطقة حتى يومنا هذا من إعادة بنائها لتربط بينهم من جديد. ومن المؤسف أن نسفها قد تم بيد لورنس ومساعدة عربيّة (١).

---

(١) تعد طرق المواصلات ووسائل الاتصال من أهم الوسائل التى توجد التقارب والتداخل بين الشعوب والأمم، وتهيئ الأرض لتقوية العلاقات والتعارف وإيجاد وسائل التداخل وبناء المصالح المشتركة، ومن أهم الأمثلة الحية على ذلك القارة الأمريكية الحافلة بكل ما فى العالم من أديان ومذاهب وجذور إثنية وإقليمية لكن وسائل المواصلات جعلت منها بلداً موحداً. ولو أن أولئك الذين خرقوا أسماع الشعوب العربية بشعارات=

لم يكن سهلاً إقناع أولئك المراجع وكبار العلماء بتشكيل حكومة عراقية تحت الانتداب، لكن مساعى "الأشراف" وأنصارهم ووعودهم الكثيرة أقنعت غالبيتهم بالموافقة الصامتة - كما أسميها - على ذلك، ولكنهم لم يقبلوا ولم يشجعوا الشيعة على الانضمام إلى الحكومة الجديدة، بل كان غالبيتهم متحفظين على المشاركة. ولولا أن بريطانيا أعلنت وأكدت بكل المؤكدات أن تنصيب فيصل وتشكيل حكومة وطنية ومجلس تأسيسى ما هو إلا تمهيد لا بد منه للانسحاب ومنح الاستقلال، لربما استمرت المقاومة حتى الجلاء التام، والاستقلال الكامل. وحين رأى الإنكليز ذلك قرر "السير كوكس" أن يلعب اللعبة الاستعمارية البغيضة القائمة على مبدأ "فرقْ تسُدْ".

الطائفيـة السياسيّة وبذورها [1]:

قرر "كوكس" إسناد الحكومة الأولى إلى السيد "عبد الرحمن النقيب" دون تشاور مع فصائل الشعب الأخرى، وخاصة أولئك الذين تحملوا عبء الثورة وتحقيق التحرير، وجمع بين "فيصل" "حليف بريطانيا" و"النقيب»

=الوحدة والاتحاد أعادوا بناء سكة حديد الحجاز وربطوا سائر الأقطار العربية والمسلمة بخطوط مواصلات وشبكة اتصالات لكانت علاقات هذه الشعوب اليوم قوية ومتينة سياسيّا واجتماعيّا واقتصاديّا.

(١) لماذا نصف الطائفية بالطائفية السياسية؟ نحن نصر على وصف الطائفية بالسياسية؛ لأننا مؤمنون بمفهومها المعروف لا علاقة لها بالدين، ولا يمارسها علماؤه، ولا الواعون من عامة المتدينين، بل يمارسها فى عالمنا سياسيون احترفوا العمل السياسى فإذا أرادوا عصبية لإسناد مواقفهم السياسية، أو موجة شعبية ليركبوها أثاروا الطائفية وامتطوها أو القبلية والعشائرية، لذلك لا تكاد تجد طائفية بين علماء الدين والمراجع بل هم سياسيون يمارسون الطائفية فى قراراتهم السياسية فى التوظيف والتعليم ومنح الفرص للمواطنين.

الذى أيّدها ضد الأتراك[1]، وبذلك استطاع أن يمرر عملية التحول أو التحويل الشكلى من الاحتلال إلى الانتداب وبموافقة حكومة عراقية شبه منتخبة لم تمثل فيها المقاومة الحقيقية وقياداتها تمثيلاً مناسبًا، بل يمكن القول بأنَّها عزلت عنها عمداً[2]. ومع ذلك فإنه من غير الممكن تجاهل تلك الحقيقة الناصعة، وهى أنّ العراق الحديث هو الابن الشرعى لثورة العشرين. وهى الثورة الأخيرة التى مثل الإسلام فيها دور القوة المحركة الأولى والأساسية لجماهير الأمة، وأثبت فيها فاعليته الحقيقيَّة فى تحريك الجماهير ودفعها باتجاه الثورة والتصدى لمقاومة الاستعمار بكل أشكاله، وإرغام البريطانيين على الخضوع والاستسلام لإرادة الأمة المجاهدة. وإذا كانت مذكرات الساسة العراقيين والمؤرخين لتلك الفترة لم تعط لهذه الثورة حقها لأسباب مختلفة فإنّ ذلك لا يقلل من شأنها وأهميتها، وكونها الأم الشرعية للعراق الحديث. وليست هذه هى المرة الأولى التى يطمس فيها المؤلفون أدواراً إسلامية فى الحرية والتحرر والاستقلال ومحاولات إعادة بناء الأمة، بل هى الظاهرة الشائعة أو المستمرة. فالإسلاميون والعلماء وقادة الفكر الإسلامى يحركون

---

(١) كان السيد النقيب من بين من أيدوا حلول بريطانيا محل الأتراك، لذلك سارع برسى كوكس إليه لتشكيل حكومة مؤقتة برئاسته، وهو يعلم أنه سيكون ستاراً للاحتلال، وأن قرار اختياره قد صدر عن وزارة المستعمرات برئاسة تشرشل وبرسى كوكس وقائد القوات البريطانية فى العراق ومس بيل السكرتيرة الشرقية لدار المندوب السامى. لمزيد من التفاصيل راجع: العراق فى التاريخ، مرجع سابق، ص٦٦٧.

(٢) كان هذا العزل لطمس دور المراجع والعلماء وخفض الأضواء عن الإسلام باعتباره المحرك الأساسى للجماهير، والمفجر لطاقاتها باتجاه التحرير، وإعطاء أضواء النصر لأعضاء الجمعيات السرية الذين تحالفوا مع بريطانيا ضد العثمانيين، تمهيداً لبناء دولة قومية تهمش المراجع وتحدث التغيير المطلوب.

الجماهير نحو الثورة حتى إذا أوشكت على الانتصار تصدر الصفوف أناس آخرون كأنَّهم يبرزون من باطن الغيب. أو يكونون قد أعدوا مسبقًا للعب هذه الأدوار إذا أخذنا بنظرية "المؤامرة". ولذلك يستبعد الإسلام وتخفض الأضواء عنه وعن رجاله وجهادهم، وتعطى لحركات التحرر والتحرير صفات أخرى تتراوح بين الوطنية والإقليمية، وربما القومية والتقدمية [1]، وهذا ما قد حدث مع هذه الثورة.

المراجع والعلماء قادة المقاومة:

قد أوهمت الجمعيات السرية المعارضة للأتراك الإنكليز بأنهم سوف يستقبلون بالزهور وباقات الورد عندما يدخلون العراق، "فالشيعة" و"الأكراد" سوف يعتبرونهم محررين من سلطة الأتراك والسنة، والسنة سوف تقنعهم تلك الجمعيات المعارضة للأتراك بأن البريطانيين جاءوا لتحريرهم حسبة لوجه الرب يسوع، وعشقًا لأبناء العراق، لكن سرعان ما اكتشف الإنكليز خطأ تلك التصورات وخطأ التحليلات والمعلومات الاستخبارية التى بنوا عليها تقديرهم للموقف. ولقد بدا واضحًا للإنكليز منذ الوهلة الأولى، ومنذ بدايات حملة "ديلامين" أن جهودهم سوف تصطدم بمقاومة علماء الدين، خاصة المراجع والمجتهدين الشيعة والحوزات العلمية وبجندهم الأوفياء من أبناء العشائر الذين لا يسلس قيادهم إلا لشيوخهم والعلماء الذين يقلّدونهم، لكنهم قبل ذلك

(١) لذلك كان الذين أحاط فيصل الأول نفسه بهم هم رجال الثورة والعسكريون العرب والعراقيون خاصة الذين شاركوا بريطانيا فى القتال ضد الأتراك العثمانيين، وهم يعلمون أنهم بذلك يسلمون البلاد العربية، بل والعالم الإسلامى إلى بريطانيا بديلاً عن تركيا، وفى ذلك ما فيه. وهذا الذى حدث فى العراق حدث فى سائر الأقطار العربية والإسلامية الأخرى.

كانوا يراهنون على اضطهاد العثمانيين الأتراك للشيعة[1]، وأن ذلك الاضطهاد قد يجعل علماء الشيعة ومراجعهم، وكذلك العشائر تستقبل بريطانيا وقواتها بالورود. ولكنهم بمجرد أن صاروا مع العراقيّين وجهًا لوجه فى "الفاو" ثم "البصرة" فوجئوا بأنّ علماء الدين الشيعة، ثم السنة كانوا أول من بادر بالدعوة إلى جهاد الكفار جنبًا إلى جنب مع المسلمين من بقايا القوات العثمانية متناسين كل ضروب العنف والنفى التى مارستها السلطات العثمانية ضدهم. لقد حملت الحوزات العلمية والعلماء عبء استنفار الشعب والقبائل فى مقدمته، وحشد كل القوى المادية والمعنوية فى مقاومة الإنكليز، وشد أزر قوات العثمانيين التى كانت فى أضعف أحوالها من حيث نقصان العُدة والعدد؛ لأنّ القيادة التركية كانت تنظر إلى الجبهة العراقية على أنها جبهة ثانوية.

لقد دعا الأئمة والمراجع وسائر العلماء أبناء العراق فى بغداد والكاظمية والنجف والكوت وكربلاء وسائر الأنحاء إلى التكاتف مع الأتراك المسلمين، وشد أزرهم لدفع الكفار عن بلاد المسلمين. ولا يخفى أن العشائر فى تلك المرحلة من تاريخ العراق كانت هى القوات الضاربة والمقاتلة من أبناء العراق.

كما أفتى كبار العلماء فى مدينة "السماوة" وفى مقدمتهم السيد عبد الرزاق الحلو - رحمه الله - بتعيُّن الجهاد فريضة على الجماهير المسلمة فاستجابت الجماهير، وسارت قوافل المجاهدين من "الشامية" و "أبو صخير" والمناطق المحيطة بالسماوة، وامتدت الدعوة إلى الجهاد إلى أقصى

(١) كما راهن من راهن على اضطهاد صدام للعراقيين، وظنوا أنهم سوف يستقبلون بالورود فى كل مكان، فإذا بهم يواجهون بمقاومة غير متوقعة أو منتظرة؛ لأنهم لم يلاحظوا التركيب النفسى للشعب العراقى الذى احتلوا أرضه مدّعين تحريره!!.

شمال العراق فالتحقت قوات كردية سنية برئاسة الشيخ "كاكا أحمد" وما لبثت أن انضمت قوافلهم إلى إخوانهم فى "السماوة".

أما فى بغداد وضواحيها فقد كتب الشيخ "مهدى الخالصى" رسالة بعنوان: (الحسام البتار فى وجوب جهاد الكفار) وقد نشرتها جريدة: "صدى الإسلام" فى حلقات متتابعة ثم أصدر الفتوى فى وجوب إنفاق المسلمين أنفسهم وأموالهم فى الجهاد وجوبًا عينيًا حتى تزول غائلة الكفار، ومن امتنع عن بذل ماله وجب أخذه منه كرهًا.

وفى (١٩) تشرين الثانى توجهت مظاهرة انطلقت من الكاظمية نحو بغداد فاستقبلهم جمهور كبير من البغداديين فى القلعة بباب المعظم حيث ألقيت الخطب والقصائد مؤيدة الجهاد الإسلامى ضد الغزاة، وكان من أبرز الخطباء آنذاك شاعرا العراق الكبيران: معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى، وكلاهما كرديان. وفى (٣٠) تشرين الثانى ١٩٢٤م تحركت الباخرة (حميدية) مقلة المجاهدين، وثلة من الفرسان العثمانيين مع السلاح والذخيرة الحربية متوجهة نحو العمارة، حيث وصلتها بعد أسبوع، وتلتها الباخرة (الموصل) تقل بقية المجاهدين وعلى رأسهم الحاج داود أبو التمن وصادق العطار والسيد عبد الكريم الحيدرى[1].

(١) المراجع والعلماء وشيوخ العشائر وقادة المجاهدين كان ينبغى أن تحتفظ ذاكرة الأجيال العراقية بذكر أهم سيرهم لا أمثال ميشيل عفلق ولا الياس فرح وأمثالهما من مكرسى الهزائم وبانى أوكارها - على حد تعبير هانى الفكيكى -. ومن الغريب أن يجعل البعض من هدم القبة والمبنى الذى أقيم على قبر ميشيل عفلق قضية كبيرة تناقش على الأثير فى حين أنهم لم يناقشوا دلائل إعدام شهداء العلماء والأئمة أمثال عبد العزيز البدرى وباقر الصدر والشهداء الثلاثة والستين من أسرة الحكيم، وعدم تحقيق أى هدف من الحرب المعلنة وغير المعلنة وتدمير العراق وتسليمه للاحتلال والقضاء على مئات الألوف من شباب إيران والكويت!.

لقد شارك المجاهدون من الشيعة والسنة يقودهم المراجع والعلماء إلى جانب القوات النظامية التركية. وتروى كتب التاريخ بلاءَهم الرائع فى القتال يدفعهم حرصهم على مقاتلة أعداء الدين، لقد استمرت الحرب بين المجاهدين العراقيين والإنكليز أربع سنوات كبد العراقيون العدو خلالها آلاف القتلى والجرحى والأسرى، لقد كانت القوات الإنكليزية التى استسلمت بعد حصارها فى الكوت مع قائدها (طاوزند) تربو على ثلاثة عشر ألف مقاتل إنكليزى، وإذا كان العراقيون لم يتمكنوا من دحر الإنكليز تمامًا، واحتلت بلادهم بعد ذلك، فإنّ هذه النتيجة لا تؤثر فى بيان ما نريد التأكيد عليه وهو مدى أثر الإسلام آنذاك فى تحريك الجماهير وقدرته على حشد القوى المعنوية والمادية للمسلمين، ودفعهم إلى الصمود فى وجه قوة عظمى. كما أظهرت تلك الثورة عظمة الإسلام وقدرته على تذويب الخلافات المذهبية والقضاء على الطائفية وتهميشها وجعل الخلافات المذهبية أموراً يمكن تجاوزها ما دام الاتفاق على أسس الإسلام وقواعده الكلية قائمًا متمثلاً فى القرآن وبيانه من السنة(١).

إنّ روح الجهاد التى سرت فى العراق كله وتغلغلت فى سائر أرجائه قد امتدت إلى منطقة (عربستان) التى كان يحكمها الشيخ خزعل بن جابر من "المحيسن من قبيلة كعب" بطريقة خاصة؛ حيث كانت إمارته ترتبط سياسيًا بحكام إيران، ويعتبر أهلها بمن فيهم الشيخ خزعل من رعايا الإيرانيّين وإن كانوا جميعًا عشائر عربية، ولكنه مع ذلك كان يحتفظ بأوثق العلاقات

(١) يؤكد هذا أن الطائفية ليست ثمرة تدين، ولا إنتاج متدينين، بل هى إنتاج ساسة، وطلاب مناصب وعلمانيين قد لا يكون لديهم اهتمام بأى جانب من جوانب الدين بل قد تكون مواقفهم معادية له.

التجارية والاقتصادية مع بريطانيا، ولا يكاد يخرج عن آراء مندوبيها فى المحمرة والبصرة فى أىّ شأن من شئون إمارته ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة آنذاك فى منطقة الخليج، وفى فترة من الفترات فكرت بريطانيا أن تمنيه بعرش العراق، وبعد تسلم فيصل الأول حرص الشيخ خزعل على إقامة علاقات متينة مع سائر الحكام العرب(١).

الجذور التاريخية للطائفية السياسية فى العراق:

ابتلى العراق تاريخيًا بأن كان ميدانًا من أهم ميادين الصراع والحروب بين السلاچقة الأتراك فى العصور العباسية الأخيرة والبويهيين الفرس. وما أن تجاوز تلك المرحلة حتى وقع أسيرًا للغزو المغولى. وقبل أن يشفى من آثار ذلك الغزو الكبير إذا بالحروب والصراعات بين الدولتين العثمانية فى تركيا، وما أخضع لها، والصفوية فى إيران تتخذ من العراق ميدانًا من أهم ميادين القتال والصراع بينهما، فأورثه ذلك التاريخ الطويل من الصراع فيه وعلى أرضه تراثًا فى غاية التعقيد. فالسلاچقة الأتراك حين سيطروا على العراق وتحكموا فى مقاليد بغداد اضطهدوا سائر الفرق والمذاهب الإسلامية التى لا تتبنى توجههم "الماتريدى"(٢) فى العقائد والحنفى الخاص فى الفقه. وقد أصاب

(١) تراجع آثار ثورة العشرين على الخليج والجوار العراقى فى سائر المظان التى تناولت تفاصيل هذه الثورة. وأما الشيخ خزعل وإمارته وعشائرها فتراجع مذكرات سليمان فيض (٣٧٨-٣٨٨) طبعة دار الساقى، لندن، ١٩٩٨م، ففيها معلومات مهمة عن هذه الإمارة.

(٢) الماتريدية: هم أصحاب أبى منصور محمد بن محمود المعروف بالماتريدى والملقب بإمام الهدى، ولد ونشأ فى سمرقند موطن المناظرات والمجادلات فى الفقه والأصول، وكان حنفى المذهب تلقى علوم الفقه والكلام على نصر بن يحيى البلخى، وضع كتبًا كثيرة منها: كتاب تأويل القرآن، وكتاب الجدل، وكتاب الأصول من أصول الدين، وكتاب=

الأشاعرة[1] والمذاهب السنية الفقهية المغايرة لهم عنت كبير، وعرفت بغداد فى عهدهم عقوبة إعدام كتب المخالفين لمذهب الدولة حرقًا. قبل أن يمارس المغول ذلك فى إغراق كتب العلم فى نهر دجلة بعد قرنين من الزمان.

إنّ ما سُمى "بالحكم الوطنى" الذى تأسس فى ظل الاحتلال البريطانى ولمساعدة بريطانيا على حفظ الأمن فى العراق، وتوفير أرواح جنودها، قد

= التوحيد والمقالات فى علم الكلام. وحاول إثبات العقائد التى اشتمل عليها القرآن بالعقل والبراهين المنطقية، وقد اعتبرت الماتريدية أن معرفة الله تعالى مدركة الوجوب بالعقل، وأن الله تعالى منزه عن العبث؛ وأن أفعال الله تعالى أرادها لحكمة اختارها، وأن الله تعالى خالق الأشياء كلها فلا شىء فى الوجود إلا وهو مخلوق لله وحده لا شريك له.

(١) الأشاعرة: هم أصحاب أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (ت ٣٣٠ هـ) ينسب أبو الحسن إلى أبى موسى الأشعرى، وكان على مذهب المعتزلة فى علم الكلام وتتلمذ على شيخهم أبى على الجبائى، وأقام على الاعتزال حتى سن الأربعين حيث جرت بينه وبين أستاذه الجبائى مناظرة اعتكف على أثرها فى بيته مدة خمسة عشر يومًا ثم خرج إلى الناس ودعاهم إلى الاجتماع فى المسجد الجامع فى البصرة ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى أنا كنت أقول بخلق القرآن وأن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة فأخرج فضائحهم. ومن آرائه أيضًا إن علم الله تعالى واحد يتعلق بجميع المعلومات المستحيل، والجائز، والواجب والعدم، وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصلح من الجائزات وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص، وكلامه واحد هو أمر ونهى وخبر واستخبار ووعد ووعيد. كما أثبت أن السمع والبصر لله تعالى صفتان أزليتان وأثبت أن اليدين والوجه صفات خبرية. والإيمان عند الأشعرية هو التصديق بالجنان فمن صدق بالقلب واعترف باللسان صح إيمانه، وقد انتشر المذهب الأشعرى فى العراق ثم فى مصر أيام صلاح الدين الأيوبى وكذلك فى سوريا وبلاد المغرب العربى.

سلك ذلك الحكم منذ البداية مسلكًا استبداديًا؛ لاعتماده فى تدعيم سلطانه على رضا الغازى ومساندته، لا على قناعة الشعب العراقى به وخاصة المراجع وأتباعهم. كما اتبع سياسة التمييز الطائفى بتشجيع من المحتل الغازى كذلك. ومن أبرز ما لجأ إليه لتكريس التمييز الطائفى، وتحويله إلى حقيقة ثابتة ومبرّرة فى الوقت نفسه نزع الهوية العربية عن الشيعة والتشيُّع. والاستمرار فى سياسات العزل المذهبى الموروثة عن العثمانيين، والتشهير بالمذهب الشيعى ونسبته إلى الفرس، ورميه بأنّه مذهب يقوم على البدع، وأنه قد تغلغل فيه الفكر الشعوبى والفارسى، وصار السمة الغالبة عليه. ولقد أدت تلك السياسات إلى توليد قناعات خاطئة، قامت على أسس منحرفة منها أحزاب وقوى وطنية إقليمية، أو قومية شادت برامجها السياسية على قواعد مائلة خاطئة من تلك التصورات. مع أن المفترض فى تلك الفئات الإقليمية منها والقومية أنها ليبرالية فى بنائها الفكرى. وبعضها يصرح بعلمانيّته، فمن أين وكيف يجمع هؤلاء بين الطائفية المذهبية وبين الليبرالية والعلمانية؟ لكن لله فى خلقه شئون !![1].

---

(١) أن ما نقوله قد لا يعجب الكثيرين من أولئك المعجبين بالنظام الملكى الذى قام فى أعقاب ثورة العشرين؛ لأن من جاءوا بعده ارتكبوا من الأخطاء بل والجرائم ما جعلهم ينظرون إليه على أنه كان الصورة المثالية، لكن الناظر إلى ذلك النظام بشكل موضوعى، لا بد له أن يدرك أن ما جاء بعده من نظم العسكر والبعثيين والطائفيين لم يكن إلا ثمارًا مرة لغرسه، فلو طاب الغرس لطابت الثمار، ومجيء من هو أظلم لا ينبغى أن ينسى الناس دور الظالم فى مجيء من هو أظلم، ودور المنحرف فى مجيء من هو أكثر انحرافًا فذلك أمر يكاد يكون طبيعيًا. فأيلولة النظام العراقى إلى ديكتاتورية صدام لا ينبغى أن تغطى على البذور والجذور الفاسدة التى أفرزت نظامه البشع.

استقلال الحوزات والمدارس الدينية الشيعية:

مما عرف به السلاجقة الأتراك الذين هيمنوا على العراق الجمع بين ضيق الأفق والتعصب ضد المخالف إلى درجة استباحة قتله. فهم لا يؤمنون إلا بالرأى الواحد والمذهب الواحد، وحين وجدوا تلك الحريات الفكرية والمذهبية فى بغداد ساءهم ذلك، وعملوا على مصادرة تلك الحريات، ووضعوا من القيود ما لا عهد لبغداد والعراق به. وطاردوا العلماء المخالفين، وقتلوا منهم عدداً، وأحرقوا كتب المخالفين لهم باحتفالات علنية من فلاسفة ومناطقة وعلماء. وإمعانًا فى القضاء على ظاهرة "الحرية الأكاديمية" أو حرية التعلم والتعليم، فقد عمدوا إلى تأسيس مدارس لا تُدرس إلا مذهب الدولة، وما تقبله من فكر، وأوقفوا عليها الأوقاف والحبوس، وربطوا بها الوظائف. وبذلك صادروا حرية القلم لصالح سلطة السيف، وحولوا علماء الحنفية خاصة إلى موظفين وامتهنوا العتبات والأضرحة التى لها لدى الشيعة قدسيّة، ولدى بقية المسلمين احترام وتقدير(١).

هنا عمد علماء الشيعة إلى البعد عن أماكن السيطرة السلجوقية المطلقة وموظفيها فبدأوا بتأسيس مدارسهم الخاصة و "حوزاتهم العلميّة" فى النجف وفى الأماكن النائية عن العاصمة؛ وذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى. وكانت بدايات بسيطة لا يصعب تمويلها بما يتوافر لهؤلاء العلماء من حقوق، وتبرعات الموسرين من مقلديهم.

---

(١) مثال على ذلك الامتهان أن مقبرة النجف قد أعطيت "باللزمة" إلى ملتزم يهودى كان المسئول عن السماح بدفن أموات المسلمين الشيعة فى المقبرة من عدم ذلك، وكان يتقاضى على ذلك أموالاً ترهق كواهل أهل المتوفى، إضافة إلى إجراءات أخرى تعد بحد ذاتها أهانة بالغة حفلت بها تلك الصفحات المطوية من تاريخ العراق.

أما فى الجانب الحنفى خاصة، والسنّى بصفة عامة فقد حاول السلاچقة تحويل المدارس والوظائف الدينية إلى مؤسسات معقدة ضخمة؛ بحيث تحتاج إلى أموال الدولة وأوقاف قادتها، وتمويل رجالها على الدوام. وقد بدأ بعضهم يختص ببعض العلماء وتلامذتهم، ويبنى لهم المدارس الفخمة والمساجد الضخمة والتكايا، ويوقف عليها الأوقاف لتستقطب الطلاب، ويتنافس على التدريس فيها المدرسون، ويقبل الطلاب على الدراسة فيها. ومنذ ذلك التاريخ والعالم والفقيه الشيعى يتمتع بالاستقلال المادى عن الدولة بحيث يستطيع أن يتمتع بشعور الاستغناء عن الحاكم، بل والاستعلاء عليه. ويحقق معنى الكلمة الشائعة فى الأوساط الفقهية: "وعلا الملوك ليحكم العلماء".

أما فى المجال السنِّى فمهما علا قدر العالم فإنه لا يعدو أن يكون واحداً من موظفى الدولة، عليها يعتمد فى رزقه، وممارسة دوره، والمحافظة على مكانته، ولذلك ساغ لبعض الناس أن يرددوا واصفين بعض أولئك العلماء بأنهم "وعاظ السلاطين والأمراء والوزراء"[1]؛ فى حين يكون أقصى ما يمكن أن يوصم به عالم شيعىّ بأنَّه من "فقهاء الحيض والنفاس" تعبيراً عن انشغاله عن القضايا الكبرى وهموم الأمة بالجانب الفقهى ذى الصبغة الفردية[2]، وهو جانب لا بد من وجود من يقوم به فى سائر الأحوال، لأنّ الأفراد يحتاجونه فى سائر حياتهم اليومية وفى كل الأحوال.

---

(١) لعلى الوردى كتاب حمل هذا العنوان (وعاظ السلاطين) نشر فى بغداد فى خمسينيات القرن الماضى وأعيد طبعه عدة مرات.

(٢) كان الإمام الخومينى وبعض أنصاره المقربين يطلقونه على بعض من لا يولون القضايا العامة وشئون الأمة عناية واهتماماً كافيين.

ويمكن للكاتب فى تاريخ "العلوم النقلية" أن يرصد مجموعة كبيرة من الفوارق بين حالات هذه العلوم فى الحوزات وحالاتها فى المدارس السنيّة فى العراق خاصة. رغم أن عصور الانحطاط قد أحدثت كثيراً من الآثار السلبية فى هذا النوع من الدراسات بصفة عامة، لكن الآثار السلبية فى هذه المعارف فى الجانب السنيّ كانت أشد وأنكى؛ فقد أورثت جموداً وتقليداً بدأ قبل سقوط بغداد بأيدى التتار، وما زال قائمًا. ووجود أفراد نوابغ من الفريقين بلغوا مرتبة الاجتهاد وحافظوا على القدرة على التجديد والإبداع لا يؤثر فى القاعدة العامة كثيراً، فهو بمثابة شذوذ فردى لا يخرم القاعدة. لذلك فإنّ قدرة الفقيه الشيعى على استقطاب الجماهير والاقتراب منها والإحساس بها وقيادتها لا تزال تعتبر خاصة من خواص الفقهاء الشيعة (١).

مناقشة دعوى عجمية التشيع:

لمزيد من التوكيد على الثوابت الآنفة الذكر أبادر إلى القول بأن هؤلاء الذين توهموا "عجمية التشيع" ووصفوا الشيعة بأنهم "عجم أو أعاجم" هم أميون لا يعرفون تاريخًا ولا جغرافية ولا إلمام لهم بنشأة وتاريخ الفكر الإسلامى ومدارسه، ولا المذاهب الإسلامية وطرق ووسائل انتشارها جغرافيًا واجتماعيًا أو أنهم أصحاب غرض، وفيما يتعلق بالعراق خاصة هم متساهلون فى معرفة ماضيه وحاضره ومستقبله. ولذلك فهم فى حاجة إلى أن يدرسوا ويقرأوا ويطلعوا؛ ليفهموا حقيقة الأمور.

---

(١) تناول الأخ الشيخ صادق العبادى بيان بعض الفوارق بين الحوزات والمدارس السنية، فى دراسة خاصة نشرت فى بعض أعداد مجلة "الشهيد". وتمكن الاستفادة من كتاب "الجامعة الزيتونية" لعبد المجيد النجار. "والجامع والجامعة" لزكى الميلاد. ويراجع نتاج "مؤتمر علوم الشريعة" الذى صدر بجزءين عن المعهد العالمى للفكر الإسلامى، و"الأزهر بين الجامع والجامعة" وبعض الدراسات التى أعدت فى هذا المجال لنيل درجات جامعية.

ولذلك وددت أن أضع بين أيدى الباحثين نبذة وجيزة ومنصفة بقدر الإمكان عن «**ماضى العراق وحاضره ومستقبله**» : لعلها تعين فى تعميق البحوث والدراسات التى نرجو أن يكون لها دور فى إعادة بناء وتجديد فكر العراقيين، بحيث يكونون أقدر على إعادة بناء وترميم علاقاتهم، والتعاون معًا لإعادة بناء العراق الجديد سليمًا معافى من الأمراض الظاهرة والكامنة التى يمكن أن تهدد أجياله القادمة.

ولكثرة ما حوربت هذه الحقيقة فإننا نرى أنها فى حاجة دائمة لمزيد من التوكيد على عربية التشيع فى العراق، وأن بدايات انتشاره كانت بأيدى العرب والقبائل العربية. ومن الدلائل المؤكدة لهذه الحقيقة أن أبناء الصحابة وآل البيت نصحوا الحسين - رضى الله عنه وأرضاه - وأشاروا عليه بالتوجه نحو مراكز تجمعات تلك القبائل العربية، ومنهم ابن عمه عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - حيث قال له: "يا ابن العم إنى أخاف عليك أهل العراق... أقم فى الحجاز فإنك سيده. وإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإنّ بها شيعة أبيك وبها حصون وشعاب.."(١).

إنّ التشيع وكما ألمحنا وأكدنا فيما مر شأنه شأن أى توجه أو موقف نظرى يبدأ بسيطًا، ثم يتطور عبر تفاعل الناس معه. وينتشر فى بيئات دون أخرى

(١) راجع على سبيل المثال: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام وكذلك حوادث سنة ٨٠ هـ، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ التى أرخت لتلك الفترة من ذكر لتلك الواقعة الخطيرة التى كبدت الأمة الكثير.، وقد أفردت هذه الواقعة أو المصيبة بتآليف كثيرة يصعب حصرها.

وفقًا لعوامل كثيرة. وقد استقطب التشيع فى كثير من مراحل تاريخ المسلمين معارضى الحكومات الأموية، ثم العباسية، ثم العثمانية، ثم الاحتلال الأجنبى فى العصور المتأخرة والحكومات التى أقامها المحتلون حتى شاع تصور بأن "التسنن" يكاد يكون وعاء الحكم أو حزب الحكومات. و"التشيُّع" محضن المعارضة من الناحية السياسية، ولكن من الخطأ توهم أن السياسة وحدها هى العامل الأساسى فى تكوين أى من الفريقين، وإن كانت السياسة واحدًا من العوامل الكثيرة التى شاركت فى تكوينهما، ولكن الاستغلال السياسى لذلك وتكريسه أمر لا شك فيه. والتشيع كان يمد الخيال الشعبى كلما تزايد ظلم الحاكمين وانحرافهم بأجمل صور البطولات والتضحيات لتحقيق قيم العدل والمساواة بين المسلمين، ونبذ الظلم والخروج على الظالمين، وتحقيق المقاصد الشرعية، والقيم الإسلامية، وذلك كفيل بترسيخ البعد السياسى والاجتماعى للتشيع.

والمتتبع للأدب الشيعى يجد مصداق ذلك فى كثير من جوانبه. فالكميت الأسدى وهو من شعراء العصر الأموى الأول يقول موضحًا هذا البعد:

فكيف ومن أنَّى وإذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل

قول أيضًا:

فقل لبنى أميّة حيث حلوا ... وإن خفت المهنّد والقطيعا

أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركمو أجيعا

ويبدو الاتجاه الثورى لدى الكميت فى تمنيه أن يرى فى بنى أمية ما يتمنى لهم من بوار فى الحياة الدنيا فيقول:

تَحِلُّ دماء المسلمين لديهمو ... ويحرم طلع النخلة المتهدّلُ

فيا رب عجّل ما نؤمل فيهمو ليدفأ مقرور ويشبع مرمل (١)

فهو لا ينتظر فيهم الجزاء الأخروى ليذهبوا إلى النار ويذهب المعدمون من معارضيهم إلى الجنة، بل هو يتمنى التخلص من سلطانهم فى الدنيا ليدفأ المقرور، ويشبع الجائع المرمل.

ولقد ترك "التشيع" آثارًا مهمة فى سائر جوانب الحياة الإسلامية: فى جانب الرؤية الكلية والنماذج المعرفية وجوانب المعرفة الإسلامية والفكر الإسلامى إضافة إلى الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية.

وأهم البيئات الإسلامية التى ترك التشيُّع آثاره البارزة فى جوانب حياتها هى البيئة العراقية. قد يعود ذلك إلى وجود العتبات فيه أو لاستشهاد الأئمة، على وبنيه وكثير من ذرياتهم وشيعتهم فيه، وقد يعود ذلك إلى كونه أهم مراكز الدراسات الشيعية فى العالم، ففيه حوزات مرجعية تعد مراكز إشعاع لا غنى لأى شيعى فى العالم عن الرجوع إليها. وقد يرجع إلى وجود أكبر عدد من المراجع فى النجف وكربلاء، وقد يعود إليها كلها مجتمعة، ولكن الحقيقة هى أنّ التشيّع عربى النشأة والتطور، فمن أين ساغ لبعض الحكام العراقيين أن يصفوا الشيعة كافة بأنهم أعاجم؟ وكيف ساغ لبعضهم أن يصفوا التشيُّع بأنه مذهب أعجمى؟!! وهو عربى فى نشأته وتطوره ومبدئه ونهايته؟

الطائفية السياسية: كيف زرعت فى العراق وكيفية احتواء خطرها؟

مفهوم "الطائفية" مفهوم مشتق من جذر متحرك، فهو مأخوذ من "طاف يطوف طوافًا فهو طائف"، فالبناء اللّفظى يحمل معنى تحرك الجزء من الكل

(١) راجع: ديوان الكميت بن زيد الأسدى، بتحقيق محمد نبيل، الطبعة الأولى، بيروت، دار صادر، ٢٠٠٠م.

فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وهو أيضًا مفهوم يشير إلى عدد قليل من البشر إذ لا يتجاوز - لغةً - الألف من الأفراد. ومن ثم فإن هذا المفهوم فى جوهره يتضمن فكرة الأقلية العددية الصغيرة المتحركة فى إطار الكل المشدودة إليه بغض النظر عن دينها أو عرقها أو لغتها... فهو مفهوم كمى عددى لا غير؛ لذلك ظل اللفظ يستخدم ليشير إلى كيانات مختلفة متعددة فى خصائصها، ولكن القاسم المشترك بينها هو القلة العددية، فقد أطلق على حملة المقالات أو الآراء (نسبة إلى ما كانت الأكثرية تتبناه) "طوائف" مثل طائفة المعتزلة وطائفة الأشاعرة؛ ثم لما حدثت مقالات انقسمت حولها هذه الطوائف فى داخلها، سميت بطوائف، أيضًا مثل الإمامية والزيدية ونحوها بالنسبة للشيعة، ثم انقسمت هذه بدورها إلى مجموعات سميت "طوائف" كذلك. ولم يبرز هذا المفهوم باعتباره إشكالية أو أزمة إلا فى القرنين الأخيرين خاصة، وذلك تحت تأثير عوامل داخلية وخارجية فى ظرف تاريخى معين ساعد على إحداث نوع من التطابق بين الأمراض الداخلية والمؤثرات الخارجية. فالعربى تعامل مع اليهودية والمسيحية والإسلام تعامله مع اختلافات اعتقادية لا تعنى المفاصلة والعداء أو تهديد وحدة الكيان، والخروج عنه، أو محاولة الانتماء لكيان آخر خارجه. أو السعى للانفصال عنه فقط بحجة الاختلاف فى العقيدة، ومن أقدم النصوص العربية الإسلامية فى هذا المجال "وثيقة المدينة"[1] التى لا تزال بحاجة إلى دراسات متعمقة من جميع الجوانب، وفى ضوء تخصصات مختلفة.

وقد كانت الطائفية أبرز الانقسامات التى شهدها التطور التاريخى العربى

(١) وثيقة المدينة: يمكن مراجعتها فى كتاب "الوثائق السياسية فى العهد النبوى" لمحمد حميد الله، وكتاب "المجتمع المدنى" لأكرم ضياء العمرى.

إلى ما قبل الحملة الفرنسية على مصر والشام. وكما بين لنا التاريخ أنه لم تكن تلك الانقسامات عناصر تهديد لوحدة الكيان العربى أو مبرراً للتمايز والانفصال والتمزق بين أبنائه، أو وسيلة للاختراق من قبل الآخر، فالمسيحيون العرب لم يعلنوا - على سبيل المثال - مناصرة الصليبيين فى حملاتهم على البلاد العربية، ولم يتحالفوا معهم حتى فى لحظات انكسار المسلمين. ثم مزج مفهوم "الطائفية" ذات المكون العددى مع مفاهيم أخرى ذات مضمون فكرى أو فلسفى أو عرقى أو مذهبى أو دينى فتحول إلى ما يشبه "المصدر الصناعى" فى لغتنا ليفيد معنى الفاعلية الخاصة بالأقلية العددية، والمنفصلة عن فاعلية الأمة، وبذلك أصبح مفهوم "الطائفة" يستخدم بديلاً لمفاهيم "الملة والعرق والدين" التى كانت سائدة قبل ذلك. واختلطت هذه المفاهيم جميعًا فى بيئة متأزمة فكريًا وسياسيًا، مأزومة ثقافيًا فأنتجت مفهوم "الطائفية" باعتباره تعبيراً عن حالة أزمة تعيشها مجتمعات عربية مثل لبنان حيث تحول الجزء إلى كل والبعض إلى كيان مستقل، وأصبحت الطائفية مذهبًا وأيديولوچيّة وهُويَّة حلت محل الهويات الأخرى والانتماءات الأعلى، بل وبدأت تتعالى عليها، وقد تبدى الاستعداد للتقاطع معها وأخذ موقعها، وهذا ما يهدد وحدة العراق اليوم وينذر بإنهاء وجوده.

إن "الطائفية" السياسية قد تم تكريسها - كما تقدم - من ساسة ليس لديهم التزام إسلامى، أو مذهبى، إذ إن "العلمانى" سواء أخذ من الدين موقفًا محايداً أو معاديًا لا يمكن أن يكون له موقف مذهبى حقيقى؛ إذ المذهب فرع عن التدين، ومن فقد الأصل فقد الفرع بالضرورة، بل هو موقف انتهازى للحصول على "عصبيَّة" كما يسميها ابن خلدون أو شعبية كما يطلق عليها فى

عصرنا هذا؛ ليكون الانتهازيّ السياسيّ قادرًا على الوصول إلى السلطة.

إن مجرد الانتماء إلى طائفة أو فرقة أو مذهب لا يجعل الإنسان المنتمي إلى تلك الطائفة طائفيًا، كما لا يجعله طائفيًا عملهُ لتحسين أوضاع طائفته أو المنطقة التي يعيشون فيها دون إضرار بحقوق الآخرين. ولكن الطائفيّ هو الذي يرفض الطوائف الأخرى، ويغمطها حقوقها، أو يُكسب طائفته تلك الحقوق التي لغيرها تعاليًا عليها، أو تجاهلاً لها، وتعصُّبًا ضدها.

ولقد أدرك المحتلون نقطة الضعف هذه في "السياسيّين العراقيّين" وأحسنوا استخدامها واللعب عليها. فالبريطانيّون حين رأوا أن ثورة العشرين التي فرضت عليهم الهزيمة والتخلي عن أحلامهم في العراق اندلعت في المناطق الشيعية أولاً، ومنها عمت العراق كلّه وقادها علماء الدين والمراجع الشيعية. قرروا الاعتماد في حكم العراق على "السنة العرب" فابتلعوا الطعم بقيادة وزعامة السيد عبد الرحمن النقيب، ومجموعة من رجال السلطة الذين جاء بعضهم من الجمعيات السرية التي كانت تتعاون مع بريطانيا ضد الأتراك العثمانيين. وحين يبتلى بلد برجال سلطة يستندون في وجودهم، واستمداد نفوذهم إلى الأجنبي؛ فإنهم يمنحون ولاءهم واهتمامهم إلى أولئك الذين مكّنوهم من السلطة، لا إلى شعوبهم. وهنا تبدأ زاوية اتصالهم بشعوبهم بالانفراج التدرجي إلى أن يحدث الفصام.

إنّ أخطر ما يبتلى به شعب أن يتحول حكامه من رجال دولة إلى رجال طوائف أو أحزاب أو قبائل، فالمصير الذي ينتظر ذلك الكيان هو التفكك لا محالة، ولن يكون بعد ذلك رابح إلاّ أعداء ذلك الكيان، المستفيدون من تمزيقه.

إنّ الناظر في الأوضاع العراقية الحالية يرى تشابهًا كبيرًا بينها وبين ما جرى

فى مرحلة التأسيس، ويلحظ أنّ الاختلاف فى الممثلين فقط لا فى الأدوار التى تجرى إعادتها بدقة عجيبة. والعراقيون ليس أمامهم خيار، فإما أنْ يتحلَّوا بالوعى السياسىّ الصادق، ويتخلَّصوا من الأفكار المريضة التى أعادتهم للاحتلال بعد ثلاثة وثمانين عامًا. وإما أن تستمر حالة الفعل ورد الفعل، وتبادل الأدوار بين الشيعة والسنة والعرب والأكراد والمحتلين القدامى والجدد.

لقد كنت أتابع مظاهرات طلاب المدارس الدينيّة السنّة بعد سقوط بغداد الأخير، ثم المسيرة الكبرى التى اشترك فيها أبناء الكاظميّة والأعظميَّة معًا وكلّهم كانوا يهتفون بصوت واحد ملىء بنبرة الإخلاص "إخوان سنّة وشيعة، هذا البلد ما نبيعه". وكلما سمعت ذلك استغرقت فى البكاء وقلت فى نفسى: هكذا كان آباؤنا وأجدادنا يفعلون فى العقد الثانى من القرن الماضى، تأتى مظاهرات الشيعة من الكاظميّة لتتّحد بمظاهرات السنَّة فى جامع الحيدرخانة فى بغداد إلى أن فرقهم الطائفيّون السياسيُّون، وأنسوهم وحدتهم، وبدَّدوا طاقاتهم فى صراعات طائفيّة انتهت بالبلاد إلى الحالة المزرية التى تعيشها اليوم، وهى الحالة التى قد تحتاج البلاد إلى عقود قادمة عديدة لتتخلص من آثارها السلبيّة. وما هى بفاعلة إلاّ إذا تخلصنا من تلك البذور الخطيرة.

لذلك فإنّ اتفاق كلمة أبناء العراق على أن التنوع بكل أنواعه الدينيّة والعرقيّة واللسانية والمذهبيّة هو الثابت الثالث من ثوابت هذا البلد، فينبغى أن تتفق كلمة الجميع على تحويله إلى إمكانيَّة لا إلى معوّق، وأمر إيجابىّ لا سلبىّ، ووضع أسس وتقاليد يتَّفق الجميع عليها وعلى احترامها، وفى مقدمتها عدم قبول التفرقة والطائفيّة من أى وعاء خرجا، وعدم السماح لأحد بتحويلها إلى طائفيّة سياسيّة وأيديولوچيّة حكم. لا بد من تعليم الأجيال وتدريبها على

أن المطلوب ليس مجرد قبول المخالف المذهبى أو الدينى أو العرقى، بل لا بد من اعتباره مصدر قوّة بحيث لو لم يكن موجوداً لوجب إيجاده. وهناك الكثير من الوسائل والأدوات المعاصرة التى يمكن أن تساعد على ذلك وتجعله حقيقة واقعة.

والاحتلال سواء كان قديمًا أو حديثًا لا يمكن أن ينظر إليه على أنَّه فرصة لتحقيق مكاسب سياسية، طائفيّة أو عرقيّة، كما حدث فى أعقاب ثورة العشرين ويراد تكراره اليوم أو إعادة إنتاجه بشكل آخر، بل هو فرصة لمراجعة النفس، ورصد الأخطاء والسلبيّات وأخذ الدروس والعبر؛ لكيلا نستمر فى تكرار أخطائنا، ويأكل الآباء الحصرم فتضرس أسنان الأبناء والأحفاد.

***